Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 39:4 (2004)

نقاء الكلمة وجمال التعبير في الخطاب القرآني

عودة عبد عودة عبدالله

مقدمـة:

ينظر هذا البحث في جملة من النصوص القرآنية، في محاولة للوقوف على المنهج القرآني في الدعوة إلى نقاء الكلمة والذوق في التخاطب مع الآخرين.

فالكلمة في الخطاب القرآني تقدِّم معياراً دقيقاً لرقيّ المجتمع في ميدان الفكر والثقافة والخُلُق والحضارة، ذلك أن الكلام القرآني لا يقف في روعته عند الحدود التي يقف عندها الكلام المألوف من حيث رونق اللفظ وجمال التعبير فحسب، بل هو ذوقٌ أدبيٌّ بلغ النهاية في الرفعة والسموّ، وتعبيرٌ فريد بلغ الكمال في التنسيق والحسن والجمال. يراعي الطبيعة البشرية التي يؤثّر فيها القول الحسن والكلمة الطيبة والموعظة الرقيقة والأسلوب الليّن. فالقرآن الكريم حين يخاطب هذا الكائن البشري الذي تتمثل فيه مجموعة من المشاعر والأحاسيس، يخاطبه بكلامٍ في قمّة الأدب، فيستخدم أجمل مفردات اللغة في التعبير عن الموقف، بأدبٍ في منتهى الروعة، على سبيل الحقيقة أو المجاز أو الكناية. فيجنح أحياناً إلى المجاز حينما تكون فيه مراعاة الأدب الرفيع، كما يلجأ إلى الكناية عندما تكون في التصريح باللفظ منافاة للأدب والذوق. فللقرآن الكريم في تربيته للذوق وتنميته للشعور وإرهافه للحسّ وسموّه بالروح، أسلوبٌ انفرد به عن كل أساليب الكلام.

وسأحاول في هذا البحث استنباط بعض الجوانب لنقاء الكلمة في الخطاب القرآني.

المبحث الأول: الشفافية في استخدام أسلوب الكناية

الناظرُ في منهج القرآن الكريم عند الحديث عن القضايا الشائكة، خاصة تلك التي تتحدث عن وصف العلاقة بين الرجل والمرأة، يجده قد بلغ الغاية في مراعاة الذوق والأدب ونقاء الكلمة، وذلك باستخدام أوفى الأساليب في بيان المراد والغرض، وأحسنها وأعذبها في التعبير عن المعاني.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

فإنَّ مِنَ الألفاظ ما هو قبيحٌ لا يُستحسن التصريح به، والله سبحانه وتعالى جميلٌ يحبُّ الجمالَ في كل شيء، ومِنْ ذلك جمال الكلمة والعبارة. يقول ابن قيم: "وهو سبحانه كما يحبُّ الجمالَ في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة. فيبغضُ القبيحَ وأهلَه، ويحبُّ الجمالَ وأهلَه"(١).

ومن هنا فقد جَنَحَ القرآنُ الكريم عند الحديث عن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة عن ذِكر صريح العبارة، إلى ذكر ما يدلُّ عليها على سبيل الكناية والمجاز، فيَعْرِضُ الأحكام التشريعية التي تهمّ المسلمين في هذه العلاقة الخاصّة، في صورةٍ بديعة مشتملةً على الألفاظ الرقيقة والآداب الوقورة والكناية الجميلة.

روى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "المباشرة والملامسة والمسّ جماعٌ كلُّه، ولكن الله عز وجل يُكنّي ما شاء بما شاء"(٢). وفي رواية أخرى عنه أنه قال: "إنَّ الله عز وجل حَييٌّ كريمٌ يُكَنِّي عمَّا شاء. وإنَّ المباشرة والرفث والتغشي والإفضاء واللمس عُنيَ به الجماع"(٣).

وسنحاول فيما يلي إلقاء نظرة فاحصة على التعبيرات القرآنية في وصف العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، لنستخلص بعدها العبر في كيفية تعاملنا مع هذه الأمور في حياتنا اليومية.

١- الإفضاء:

قال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوْا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُوْنَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيْناً * وَكَيْفَ تَأْخُذُوْنَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيْثَاقًا غَلِيْظًا**﴾(٤). الإفضاء المذكور في الآية هو الجماع؛ كما روي عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل(٥).

١- ابن قيم، محمد بن أبي بكر الزرعي: **الفوائد**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٨٤.

٢- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى: **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، د.ط، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، رقم ٨٣٨٠، ج٤، ص٣٢١.

٣- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد: **تغليق التعليق**، تحقيق: سعيد عبد الرحمن القزقي، بيروت/عَمان: المكتب الإسلامي، دار عمار، ط ١، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٢٠٣.

٤- سورة النساء، الآيتان: ٢٠، ٢١.

٥- انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد: **زاد المسير في علم التفسير**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٤هـ، ج ٢، ص ٤٣. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **الدر المنثور**، بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٤٦٧.

يقول شيخ زاده في حاشيته على **تفسير البيضاوي**: "الإفضاء هنا كناية عن الجماع، فإنه سبحانه وتعالى نزَّه كتابه عن كل ما يُستبشع سماعاً"(٦).

يُقال لغة: أفضى الرجلُ إلى امرأته؛ أي باشرها وجامعها. وأصل الإفضاء في اللغة من الفضاء وهو المكان الواسع من الأرض(٧). وفي هذا إشارة قرآنية إلى مدى اتساع مفهوم الإفضاء في العلاقة بين الزوجين، فهي علاقة لا تقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل تشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كلِّ صورةٍ من صور التجاوب. فاللفظ في سياقه القرآني "يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان. وفي كلِّ اختلاجة حُبٍّ إفضاء، وفي كلِّ نظرةِ وُدٍّ إفضاء، وفي كلِّ لمسة جسمٍ إفضاء، وفي كلِّ اشتراكٍ في ألمٍ أو أملٍ إفضاء، وفي كلِّ تَفَكُّرٍ في حاضرٍ أو مستقبلٍ إفضاء، وفي كلِّ شوقٍ إلى خَلَفٍ إفضاء، وفي كلِّ التقاءٍ في وليدٍ إفضاء"(٨).

٢- التَغشِّي:

قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيْفًا فَمَرَّتْ بِـهِ فَلَمَّآ أَثْـقَلَتْ دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ**﴾(٩).

يُطلق الغشاء في اللغة على الغطاء، ويُكَنَّى به عن الجماع(١٠). وهي "كناية نزيهة عن أداء وظيفة الزوجية، تشير إلى أنَّ مقتضى الفطرة وأدب الشريعة فيها الستر"(١١).

وفي التعبير عن اتصال الرجل بالمرأة، بقوله: ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**﴾ كما يقول عبد الكريم الخطيب: "أدبٌ من آداب القرآن، وإشارةٌ لطيفةٌ إلى ما يكون بين الزوجين، إذْ يَغْشَى الرجلُ المرأة؛

٦- شيخ زاده، محمد بن مصلح الدين القوجوي: **حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي**، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج ٣، ص ٢٨٧.

٧- انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت، ج ١٥، ص ١٥٧.

٨- قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط١١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج ١، ص ٦٠٦- ٦٠٧.

٩- سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

١٠- انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، ج ١٥، ص ١٢٧. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت، ص ٣٦١.

١١- رضا، محمد رشيد: **تفسير المنار**، بيروت: دار المعرفة، ط ٢، د.ت، ج ٩، ص ٥١٨.

أي يكون لها غشاءً ساتراً رقيقاً، أشبه بالثوب يلبسه الإنسان، أو أشبه بالليل إذْ يَغْشَى النهارَ ويدخل عليه، فيستر ما فيه من كائنات، ويحجب الأعين عنها"(١٢).

وفي هذا اللفظ القرآني إضافة إلى أدب التعبير، تصويرٌ لدفءِ العلاقة بين الزوجين، فكلٌّ منهما يستر الآخر بجسده ليشعر بالطمأنينة والأمان. حتى لتبدو العلاقة بينهما وكأنها امتزاج روحين لا التقاء جسدين. فاللفظ القرآني يوحي بسموِّ الصورة الإنسانية في العلاقة الجنسية، وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة. فهي ليست علاقة جسدية محضة بعيدة عن المشاعر والأحاسيس، بل هي علاقة جسدية روحية في آن واحد.

٣- الحَرْث:

قال تعالى: ﴿**نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوْا حَرْثَـكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوْا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوْا اللّهَ وَاعْلَمُوْآ أَنَّكُمْ مُّلَاقُوْهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾(١٣).

أصل الحرث هو إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع(١٤). وجُعل في هذا الموضع كناية عن الجماع. فقد شَبَّه ما يُلقى في أرحامهن من النُّطَف التي منها النسل، بما يُلقى في الأرض من البذور التي منها النبات، بجامع أنَّ كلَّ واحدٍ منهما مادة لما يحصل منه(١٥).

وهذا اللفظ كما يقول الجصّاص: "يدلُّ على أنَّ إباحة الوطءِ مقصورةٌ على الجماع في الفرج؛ لأنه موضع الحرث"(١٦).

فاللفظ القرآني بهذه الصورة المشتملة على الكناية، استطاع أنْ يُعبِّر عن معنى إضافيٍّ آخر، فاستخدم لفظ "الحرث" الذي هو لفظٌ حَسَنٌ في هذا السياق، ليُشير من طرفٍ خفيّ إلى النهي عن وطءِ الرجل زوجتَه في غير موضع الحرث.

كما يُسْتَشَفُّ من هذا التعبير الكنائي إرشادُ الناس إلى أنَّ العلاقة الجنسية بين الزوجين ليست نزوة عابرة، بل إنَّ من واجب الزوج أنْ يتعهّد زوجته بالرعاية والحنان، كما يتعهّد الحارثُ

١٢- الخطيب، عبد الكريم: **التفسير القرآني للقرآن**، د.م: دار الفكر العربي، د.ط، د.ت، ج ٣، ص ٥٣٨.

١٣- سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

١٤- انظر: الراغب: **مفردات ألفاظ القرآن**، ص ١١٢.

١٥- انظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: **فتح القدير**، بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت، ج١، ص٢٢٦.

١٦- الجصّاص، أبو بكر أحمد بن علي: **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ٣٩.

أرضَه بالرعاية حتى تُنبت وتُثمر. لذا فالأسلوب الكنائي في القرآن أبلغ من الحقيقة والأسلوب المجازي في تأدية المعاني المستوحاة من الكلام وتحقيق الغرض المنشود.

٤- اللمس والمسّ:

قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوْا مَآءً فَتَيَمَّمُوْا صَعِيْدًا طَيِّبًا**﴾(١٧). وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ طَلَّقْتُمُوْهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَن تَمَسُّوْهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيْضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ**﴾(١٨). وقال تعالى: ﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِيْ وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِيْ بَشَرٌ**﴾(١٩).

أصلُ اللمس في اللغة هو المسُّ باليد. والمسُّ يُطلق ويُراد به نفس المعنى. ويُكنَّى باللمس والمسّ عن الجماع(٢٠)، كما في الآيات السابقة، وذلك على عادة القرآن الكريم في مراعاة أدب الكلام باجتناب الصراحة عند الحديث عن هذه الأمور.

قال الآلوسي: "كنَّى بالملامسة عن الجماع لأنه مما يُستهجن التصريح به أو يستحيى منه"(٢١).

٥- الرَّفث:

قال تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ**﴾(٢٢).

الرفث: هو الجماع وغيره مما يكون بين الرجل والمرأة. وقيل: هو كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة. وأصل معناه في اللغة: الفُحش من القول وكلام النساء في الجماع(٢٣)، ثم أُطلق على الجماع على سبيل الكناية. فقد علَّمَنا القرآن التهذّب والتأدّب في التعبير عن هذه الأمور عند الحاجة إلى الكلام فيها.

١٧- سورة النساء، الآية: ٤٣.

١٨- سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

١٩- سورة آل عمران، الآية: ٤٧.

٢٠- انظر: الراغب: **مفردات ألفاظ القرآن**، ص ٤٦٧.

٢١- الآلوسي، أبو الفضل محمود: **روح المعاني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت، ج٥، ص٤٢.

٢٢- سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

٢٣- انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، ج ٢، ص ١٥٣.

قال القرطبي: "الرّفث كناية عن الجماع لأن الله عزَّ وجل كريم يُكنّي"(٢٤). والناظر في الآية السابقة يجد فيها أدباً آخر غير الأدب الحاصل من الكناية، هذا الأدب المتمثل في حذف الفاعل وبناء الفعل للمجهول، فلم يقل: "أحلّ الله"، وذلك تنزيهاً لاسم الله عز وجل أنْ يقترن بالرفث. وفي هذا توجيهٌ قرآنيٌّ لنا بأن نتأدب في خطابنا مع الله، فلا نقرن اسمه بالأشياء التي يَقْبُحُ ذكره تعالى معها.

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن العلاقة الجنسية بين الزوجين، يُعبِّر عنها أجمل تعبير حين يُشبّهها باللباس ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾ وهذا أيضاً من ألفاظ الكناية المعبِّرة عن وظيفة الزوجية، فكما أنَّ اللباس ساترٌ وواقٍ، فكذلك الصلة بين الزوجين، تستر كلاً منهما وتقيه.

٦- المباشرة:

قال تعالى: ﴿**فَالْآنَ بَاشِرُوْهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُـمَّ أَتِمُّوْا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوْهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُوْنَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُوْدُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ**﴾(٢٥).

أصل المباشرة إلصاق البشرة بالبشرة. قال ابن منظور: "باشرَ الرَّجلُ امرأتَه مُباشَرَةً وبِشَاراً: كان معها في ثوبٍ واحد فَوَلِيَتْ بشرتُه بشرتَها"(٢٦). وسُميَ الجماع مباشرةً لما يكون فيه من ملاصقةِ بشرةِ كلِّ واحدٍ من الزوجين صاحبه(٢٧). وقال صاحب **المنار**: "المباشرة هي كناية عن المباضعة الزوجية، وحقيقتها مسُّ كلٍّ بشرةَ الآخر؛ أي ظاهر جلده، فهي كالملامسة في حقيقتها وكنايتها، وهي من نزاهة القرآن"(٢٨).

٢٤- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر: **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة: دار الشعب، ط ٢، ١٣٧٢هـ، ج ٢، ص ٣١٥.

٢٥- سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

٢٦- ابن منظور: **لسان العرب**، ج ٤، ص ٦١.

٢٧- انظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء: **معالم التنـزيل**، تحقيق: خالد العك ومروان سوار، بيروت: دار المعرفة، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج ١، ص ١٧٥. القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٢، ص ٣١٧.

٢٨- رضا، محمد رشيد: **تفسير المنار**، ج ٢، ص ١٧٧.

٧- **الدُخول:**

قال تعالى: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِيْ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَآئِبُكُمُ اللاَّتِيْ فِيْ حُجُوْرِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِيْ دَخَلْتُم بِـهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُوْنُوْا دَخَلْتُمْ بِـهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** ﴾(٢٩).

قال البيضاوي: "وقوله: ﴿ **دَخَلْتُمْ بِـهِنَّ** ﴾؛ أي دخلتم معهن السِتر، وهي كناية عن الجماع"(٣٠). فالدخول هنا هو الجماع كما روي عن ابن عباس. وهو قول طاووس وعمرو بن دينار وغيرهما(٣١).

٨- **الهَجْر:**

قال تعالى: ﴿ **وَاللاَّتِيْ تَخَافُوْنَ نُشُوْزَهُنَّ فَعِظُوْهُنَّ وَاهْجُرُوْهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوْهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوْا عَلَيْهِنَّ سَبِـيْلاً** ﴾(٣٢).

والهجر أيضاً كناية عن ترك الجماع(٣٣). وليس معنى الهجر الوارد في الآية ـ كخطوة ثانية في التعامل مع المرأة الناشز ـ هو هجر المكان الذي تنام فيه الزوجة، أو هجر الكلام والتعامل معها، ولكنه فقط هجرها في الجماع. يدل على ذلك ما رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "واهجروهن في المضاجع" يعني بالهجران أنْ يكونَ وامرأته على فراشٍ واحدٍ ولا يجامعها(٣٤).

٢٩- سورة النساء، الآية: ٢٣.

٣٠- البيضاوي: **أنوار التنـزيل**، تحقيق: عبد القادر عرفات حسونة، بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج٢، ص١٦٦.

٣١- انظر: الشوكاني: **فتح القدير**، ج ١، ص ٤٤٥.

٣٢- سورة النساء، الآية: ٣٤.

٣٣- انظر: النسفي، عبد الله بن أحمد: **مدارك التنزيل**، دون معلومات نشر، ج ١، ص ٢٢٠. الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ط، د.ت، ج ١، ص ٣٦٩.

٣٤- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت، ج ٥، ص ٦٣.

٩- الاعتزال والاقتراب والإتيان:

قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الْمَحِيْضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوْا النِّسَآءَ فِي الْمَحِيْضِ وَلاَ تَقْرَبُوْهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ**﴾(٣٥).

يستخدم النص القرآني في هذه الآية ثلاثة ألفاظ كناية عن العلاقة الجنسية بين الزوجين، وذلك للتنبيه على أهمية النقاء اللفظي وضرورة التحلّي بالأدب القرآني الرفيع عند الحديث عن هذه العلاقة، التي تقوم في أصْلها على الخصوصية والستر. فالله سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن للناس حُكماً شرعياً فيه خيرٌ لهم في دنياهم وأخراهم. هذا الحُكم هو تحريم مجامعة المرأة خلال فترة الحيض، ولكن النص القرآني ـ كما هي عادته في أدب الكلام ـ لا يأتي بصريح اللفظ الدال على هذا المعنى، بل يلجأ إلى الكناية؛ فينهى عن ذلك بقوله: "اعتزلوا" و "لا تقربوا". وحينما أراد أنْ يبيّن لنا أن الأمر أصبح مباحاً بعد الطهر من الحيض، عبَّر عن ذلك بلفظ "فأتوهن". فالله أمر باعتزال النساء وعدم الاقتراب منهن في فترة الحيض، وأباح إتيانهن بعدها.

وليس اعتزال المرأة وعدم الاقتراب منها في هذه المدة الزمنية إلا اعتزالٌ في العلاقة الجنسية، وفي موضع الدم تحديداً لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اصنعوا كلَّ شيءٍ إلا النكاح"(٣٦). ولما رُوي عن مسروق أنه قال: "سألتُ عائشة رضي الله عنها، ما يَحلُّ لي من امرأتي وهي حائض؟ فقالت كلَّ شيءٍ إلا الفرج"(٣٧).

هكذا كان القرآن الكريم يعرض لهذه الأمور، ولأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مصاحف تدبُّ على الأرض، فقد أفادوا من هذا الأدب القرآني، ومارسوه في حياتهم اليومية. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ على سبيل المثال ـ يعرض مشكلته الحساسة ـ التي ظنّ أنَّ فيها مخالفة شرعية ـ على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هَلَكْتُ. قال: "وما أهْلَكَكَ؟" قال: حَوَّلْتُ رَحْلِيَ الليلة. قال: فلم يَرُدَّ

٣٥- سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

٣٦- مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري: **الجامع الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت، كتاب الحيض، باب رقم ٣، حديث رقم ٣٠٢، ج ١، ص ٢٤٦.

٣٧- الطبري: **جامع البيان**، ج ٢، ص ٣٨٣.

عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً. قال: فأُنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ **نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوْا حَرْثَـكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** ﴾، أَقْبِلْ وأَدْبِرْ، واتَّقِ الدُّبُرَ والحيْضَة"(٣٨).

وأراد عمر رضي الله عنه بقوله: "حوَّلتُ رحلي" أي أنه أتى زوجته في قُبُلها من جهة ظهرها، فحيث جاءها من جهة الظهر كَنَّى عنه بتحويل الرَّحل(٣٩). فكان في نزول الآية بياناً شافياً أنْ لا ضَيْرَ في ذلك ما دام في القُبُل. وقولُ عمر دليلٌ على نقاء وعفّة لسانه وأدبه في الحديث عن هذه الأمور، فقد لجأ إلى الكناية دون التصريح.

وها هي أم الدرداء تبيّن حالها وتشير إلى حاجتها بأسلوب مهذّب نقي. ففي الصحيح من حديث أبي جحيفة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم آخَى بيْن سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ... الحديث(٤٠).

ومعنى كوْن أم الدرداء متبذّلة أي لا تتزين ولا تهتم بنفسها ولا بثيابها، ولما سُئلت عن سبب ذلك أجابت إجابة حسنة تنمّ عما في نفسها، وفي نفس الوقت تثني على زوجها الذي لا يجامعها ولا يهتم بالنظر إليها، فقالت بأسلوب مهذب مؤدب: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا.

والمتتبع لحديث القرآن عن العلاقة بين الرجل والمرأة في الآيات السابقة، يجده يتسم بالإشارة والتلميح، ولعل القرآن الكريم يهدف من وراء تعابيره وإشاراته تلك إلى توجيه الأنظار إلى لونٍ من التربية الاجتماعية، يربي به الخلائق، ويرشد بوساطته الزوجين إلى أنَّ التقاءهما الجنسي يجب أنْ يُحاط بسياجٍ من الآداب والرقَّة، والبُعد عن المصارحة والمكاشفة، بل تكفي الإشارة أو اللمحة، أو إبداء الزينة، أو التجمّل والتطيب، دون الدعوة المباشرة من أحد الزوجين(٤١).

٣٨- رواه الترمذي، وقال عنه: حسن غريب. انظر: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت، كتاب التفسير، باب ٣، حديث ٢٩٨٠، ج ٥، ص ٢١٦.

٣٩- انظر: المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: **تحفة الأحوذي**، بيروت: دار الكتب العلمية، ج٨، ص ٢٥٨.

٤٠- رواه البخاري. انظر: **الصحيح**، كتاب الصوم، حديث رقم ١٩٦٨.

٤١- انظر: الشريف، محمود: **الإسلام والحياة الجنسية**، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٨م، ص ١٢٢.

وإذا كانت الكناية هي الأصل في الحديث عن هذه الأمور، فإنَّ هناك حالات قد تتطلب التصريح ولا يكفي فيها التلميح، كما في التعليم إذا خُشيَ عدم الفهم. وكما في التحقّق من وقوع فعل معيّن، كما كان من النبيّ صلى الله عليه وسلم مع ماعز بن مالك(٤٢).

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يُعبّر عن هذه العلاقة الحسّاسة بهذه الألفاظ الرقيقة النقيّة، ويترك ما سوى ذلك من صريح الألفاظ، ويدع تصوّرها للذهن والخيال دون حاجة إلى التلفظ بها. والقرآن عندما يجنح إلى الكناية في هذا السياق يعطينا في كلِّ مرة معنى إضافياً زائداً على المعنى الذي يدل عليه صريح اللفظ. فلفظ الإفضاء دلَّ على شمولية العلاقة بين الزوجين والتي لا تقف عند حدود الجسد، ولفظ التَغَشِّي دلَّ على معنى الستر والتغطية، ولفظ الحرث حدّد المحل الذي يكون فيه الجماع، إضافةً إلى دلالته على معنى العناية والرعاية. وهكذا دلَّ كلُّ لفظٍ على معنى جديد مصاحب للمعنى الأصلي.

ويدخل ضمن هذا الأدب القرآني، الكناية عن أمورٍ أخرى يُستقبح ذكرها، ومنها(٤٣):

١- الكناية عن البول ونحوه بالغائط:

وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوْا مَآءً فَتَيَمَّمُوْا صَعِيْدًا طَيِّبًا**﴾(٤٤).

وأصل الغائط المكان المطمئن من الأرض(٤٥). وكان الناس يقصدون هذه المواضع لقضاء الحاجة تستّراً عن العيون. ثم سُمّيَ ما يخرج من الإنسان غائطاً من باب التوسّع. والمجيء من الغائط كناية عن الحدَث(٤٦).

٤٢- انظر قصة اعتراف ماعز بالزنا أمام النبيّ صلى الله عليه وسلم في: البخاري: **الجامع الصحيح**، كتاب الحدود، باب ٢٨، حديث ٦٤٣٨، ج ٦، ص ٢٥٠٢. ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي: **صحيح ابن حبان**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، كتاب الحدود، باب ٣، حديث ٤٣٩٩، ج ١٠، ص ٢٤٥.

٤٣- للوقوف على مزيدٍ من الأمثلة، انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ٢، ص ١٢٩.

٤٤- سورة النساء، الآية: ٤٣.

٤٥- انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، بيروت: مكتبة لبنان، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٢٠٢.

٤٦- انظر: الشوكاني: **فتح القدير**، ج ١، ص ٥٠١.

وفي الآية القرآنية أدب آخر غير الكناية، يتمثل في الصيغة التي جاء بها قوله تعالى: ﴿**أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَآئِطِ**﴾ ، فقد جاء هذا المقطع من الآية الكريمة مخالفاً لنسق النظم الذي جاءت عليه الآية، فالآية تخاطب المؤمنين في صيغ الجمع، وينفرد هذا المقطع بأنه حديث عن الغائب المفرد. فلم يقل: "أو جئتم من الغائط" كما هو النسق العام للآية. فما السرّ في ذلك؟

إنَّ في قوله تعالى: ﴿**أَوْ جَآءَ أَحَدٌ**﴾ تنكيرٌ وإخفاءٌ وسترٌ لهذا الذي جاء من الغائط، بعد أنْ كان عُرياناً، يباشر عملاً يحب أنْ يستره ولا يطّلع عليه أحد. ثم هو من جهة أخرى احترامٌ لحياء المخاطبين، حتى لكأنهم لا يفعلون هذا الفعل الذي هو ضرورة لازمة لكل حيّ، والذي هو عملٌ يأتيه كل إنسان. ولكنّه نقاء الكلمة في الخطاب القرآني التي يدعونا القرآن إلى التحلّي بها(٤٧).

٢- الكناية عن قضاء الحاجة بأكل الطعام:

وذلك في قوله تعالى: ﴿**مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيْقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُـمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ**﴾(٤٨).

فقوله: ﴿**كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ**﴾ كناية عن قضاء الحاجة كما قال غير واحدٍ من المفسّرين(٤٩). فالله يردّ في هذه الآية على القائلين بألوهية المسيح، فيبيّن لهم أنَّ من كان هذا شأنه، فكيف يكون إلهاً؟

نستخلص مما سبق أنَّ القرآن الكريم كان حريصاً في حديثه عن هذه الخصوصيات على شفافية الكلمة وعلى تجنّب الألفاظ التي تجرح الحسّ والشعور. وهو منهجٌ راقٍ في الحث على الذوق، وله انعكاساتٌ طيّبة في إشاعة الحياء والأدب ونقاء اللسان أو الكلمة بين الناس.

المبحث الثاني: الشفافية في مراعاة الظلال العامة للكلام:

من الكلمات ما هو إيجابيُّ النتائج ومنها ما هو سلبيّ النتائج. أمَّا الكلمات الإيجابية فتمنحُ الشعور بالثقة والأمان والارتياح، وتساعد في بناء العلاقات الطيبة مع الآخرين. وأمَّا الكلمات السلبية

٤٧- انظر: الخطيب، عبد الكريم: **التفسير القرآني للقرآن**، ج ٢، ص ٨٠٣.

٤٨- سورة المائدة، الآية: ٧٥.

٤٩- انظر: النحاس، أبو جعفر: **معاني القرآن الكريم**، تحقيق: محمد علي الصابوني، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٩هـ، ج ٢، ص ٣٤٣- والقرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٦، ص ٢٥٠- والآلوسي: **روح المعاني**، ج ٦، ص ٢٠٩.

فتُنتج الإحباط وعدم الارتياح، وتُعطِّل أو تشوِّش عملية بناء العلاقات الحَسَنة مع الآخرين. فليست الألفاظ على درجة واحدة من حيث الإيحاء بالمشاعر والأحاسيس. فإنَّ بعض الألفاظ يوحي بمشاعر يحسُّها السامع، لا توحي بها ألفاظٌ مرادفةٌ لها. وإنْ كان يُخيَّل للبعض أنَّ هذه الألفاظ على درجة واحدة في دلالتها على المعنى المراد، إلا أنها تتفاوت تفاوتاً غير يسير في دلالتها على المعنى الأدبي والذوق الفنّي للكلام.

فـ "الألفاظ المفردة لذاتها، وبمراعاة سياقها وموضعها من الكلام، توحي أحياناً بمعانٍ وإشارات كثيرة فوق دلالتها العامة المقصودة من ظاهر التعبير، حيث تصبح هذه الدلالات والإيحاءات أشبه بالهالة المحيطة بالمعنى الأصلي للفظ، فتزيده وقعاً في النفس، وتأثيراً في المشاعر"(٥٠).

وفي ضوء أهمية الكلمة وعمق تأثيرها، نجد أنَّ كلَّ كلمة لها دلالات تأثيرية متفاوتة، ولها ظلال خاصة تميّزها عن غيرها من الكلمات. وفي الحديث مع الآخرين لا بدَّ من مراعاة هذه الظلال التي تحملها كل كلمة، فنحرص على اختيار الكلمات والعبارات ذات الظلال الحسنة، ونتجنب الكلمات التي توحي بظلال سيئة. فالكلمة الواحدة يمكن أن تجلب همَّاً وغمَّاً ويمكن أن تجلب انشراحاً وسعادةً. فثمَّة فرقٌ ـ على سبيل المثال ـ بين قولك لرجل تزوّج باثنتين: من هي الزوجة القديمة؟ وقولك: من هي الزوجة الأولى؟ والأمثلة على ذلك في تراثنا كثيرة.

فها هو النبيّ صلى الله عليه وسلم لما بلغه أنَّ خالداً قَتل القوم الذين قالوا صبأنا صبأنا ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، وأمر أيضاً بقتل الأسرى منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"(٥١). وفرقٌ بين أن يُقال: "اللهم إني أبرأ إليك من خالد" وأن يقال: "اللهم إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد". فالبراءة ليست من خالد بل من صنيعه.

وها هو علي بن أبي طالب حينما أرسله النبيّ صلى الله عليه وسلم للبحث عن الماء، فالتقى بامرأة على بعير لها، فقال لها: انطلقي إذاً. قالت: إلى أين؟ قال: إلى رسول الله، قالت: الذي يُقال له الصابئ؟ قال: هو الذي تعنين(٥٢). فلم يقل لها (لا) حتى لا يقع في الكذب، ولم يقل (نعم) فيكون

٥٠- حفني، عبد الحليم: "وحي الألفاظ في أسلوب القرآن"، **مجلة الأزهر**، صفر ١٤٢٢هـ/ مايو ٢٠٠١م، الجزء الثاني، السنة الرابعة والسبعون، ص ١٩٣.

٥١- رواه البخاري. انظر: **الجامع الصحيح**، حديث رقم ٤٣١٥.

٥٢- رواه البخاري. انظر: **الجامع الصحيح**، حديث رقم ٣٤٤.

في مقالته إقرارٌ على بأنه (الصابيء)، إذ لا يليق بحالٍ وصف النبيّ بذلك، لِمَا استقرّ في ذهن الناس آنذاك أن من وُصِفَ بهذا فهو مذموم، لذلك عَدَلَ عليٌّ رضي الله عنه إلى هذه الكلمة.

وها هو البراء بن عازب لما سأله رجلٌ: يا أبا عمارة أتولّيتَ يوم حنين؟ فقال: أما أنا فأشهد على النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لم يولِّ[٥٣]. وفي رواية: أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفرّ[٥٤].

فربما يتوهّم السامع من إجابة البراء لو قال: "نعم فررنا" أن رسول الله قد فرَّ معهم، فأراد البراء أن يدفع هذا التوهّم بإجابته، فهذا الجواب من بديع الأدب ونقاء الكلام.

وإذا أمعنا النظر في القرآن الكريم بهذا الصدد، فإننا نجد أنَّ الدعوة إلى اجتناب بعض الكلمات ـ بسبب ما يحيط بها من ظلال تتنافى مع الأدب والعفّة والنقاء ـ تُعدُّ قضية أصيلة فيه. وهي منهجٌ قرآني يمثّله قوله تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَقُوْلُوْا رَاعِنَا وَقُوْلُوْا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوْا وَ لِلْكَافِرِيْنَ عَذَابٌ أَلِيْمٌ**﴾[٥٥]. وقوله تعالى: ﴿**مِّنَ الَّذِيْنَ هَادُوْا يُحَرِّفُوْنَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ وَيَقُوْلُوْنَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِـأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّيْنِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِـكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوْنَ إِلاَّ قَلِيْلاً**﴾[٥٦].

فأصل المعنى اللغوي لكلمة "راعنا" هو نفس المعنى الذي تدل عليه كلمة "انظرنا". فإنَّ: "راعنا" تدلُّ على معنى "الرعاية والنظر والمراقبة"[٥٧]. ولكن الله سبحانه وتعالى يُوجِّه المسلمين إلى عدم قول "راعنا" وأنْ يستبدلوا به قول "انظرنا". وذلك لما ارتبط بكلمة "راعنا" من ظلال سيّئة تتنافى مع النقاء والذوق.

ويوضّح هذه الظلال، ما جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة. حيث تذكر الروايات أنَّ السبب في ذلك النهي هو أن سفهاء اليهود كانوا يميّلون ألسنتهم في النطق بهذا اللفظ، وهم يوجّهونه

٥٣- رواه البخاري. انظر: **الجامع الصحيح**، حديث رقم ٤٣١٥.

٥٤- رواه البخاري. انظر: **الجامع الصحيح**، حديث رقم ٤٣١٧.

٥٥- سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

٥٦- سورة النساء، الآية: ٤٦.

٥٧- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت، ج ١، ص ١٤١.

إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يؤدي معنى آخر مشتقاً من الرعونة[٥٨]. رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ المسلمين كانوا يتكلّمون بهذه الكلمة، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبيّ، أعجبهم ذلك. وكانت كلمة «راعنا» في كلام اليهود تُستعمل للسَبِّ القبيح. فقالوا: إنا نسُبُّ محمداً سرًّاً، فالآن أعلنوا بسبِّ محمد لأنه من كلامهم. فكانوا يأتون نبيّ الله، فيقولون: يا محمد راعنا، ويضحكون. فَفَطِنَ لها رجلٌ من الأنصار ـ هو سعد بن عبادة ـ وكان عارفاً بلغة اليهود. فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسُ محمد بيده، لئن سمعتها من رجلٍ منكم لأضربنَّ عنقه. فقالوا: ألستم تقولونها له؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ **يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَقُوْلُوْا رَاعِنَا وَقُوْلُوْا انْظُرْنَا** .... الآية ﴾[٥٩].

فقد كان اليهود يخشون شتم النبيّ صلى الله عليه وسلم مواجهةً، فيحتالون على سبِّه بهذا الطريق الملتوي، الذي لا يسلكه إلا السفهاء. ومن ثمَّ جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة، وأُمروا أنْ يستبدلوا به ما يدل على معناه، والذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته، كي يفوِّتوا على اليهود غرضهم الدنيء[٦٠].

قال الجصّاص: "وقوله: (راعنا)، وإنْ كان يحتمل المراعاة والانتظار، فإنه لما احتمل الهزء على النحو الذي كانت اليهود تطلقه، نُهوا عن إطلاقه، لما فيه من احتمال المعنى المحظور إطلاقه"[٦١].

قال الشوكاني: "وفي ذلك دليلٌ على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتمِلة للسبِّ والنقص، وإنْ لم يقصد المتكلّم بها ذلك المعنى المفيد للشتم، سدًّاً للذريعة، ودَفْعَاً للوسيلة، وقَطْعاً لمادة المفسدة"[٦٢].

فالقرآن الكريم حين يطرح لنا كلمة "انظرنا" بديلاً عن "راعنا"، يؤصِّل لمنهج نقاء الكلمة، من خلال التوجيه نحو مراعاة الظلال العامة للكلمة أو العبارة التي نتفوَّه بها. وإذا كان سبب النـزول

٥٨- الرعونة: الحمق والاسترخاء. الرازي: **مختار الصحاح**، ص ٦٠٤ .

٥٩- انظر: علي، أبو الفضل أحمد: **العجاب في بيان الأسباب**، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، الدمام: دار ابن الجوزي، ط ١، ١٩٩٧م، ج١، ص ٢٤٣-٢٤٤. السيوطي، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: **لباب النقول في أسباب النزول**، بيروت: دار إحياء علوم الدين، ص ٢٤.

٦٠- انظر: قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، ج ١، ص ١٠١.

٦١- الجصاص: **أحكام القرآن**، ج ١، ص ٧١.

٦٢- الشوكاني: **فتح القدير**، ج ١، ص ١٢٤.

يدل على أنَّ التوجيه القرآني نزل بشأن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أنَّ ذلك ينطبق على نقاء الخطاب بشكل عام، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وهذا المنهج واضحٌ كذلك في سُنَّة المصطفى صلى الله عليه وسلم. والأحاديث التي فيها حثٌ على اختيار الألفاظ ذات الظلال الطيّبة كثيرة، فمن ذلك:

قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يقولَنَّ أحدُكم خَبثتْ نفسي، ولكنْ ليقُلْ لَقِسَتْ نفسي"(٦٣). قال الخطابي: "لَقِسَتْ نفسي وخبثت بمعنى واحد، وإنما كَرِه عليه السلام من ذلك لفظ الخبث لشناعة الاسم، وعلَّمهم الأدب في المنطق، وأرشدهم إلى استعمال الحسن، وهجران القبيح منه"(٦٤).

والنهي عن قول ذلك في حق النفس، يدخل فيه النهي عن قوله في حق الآخرين من باب أولى؛ قال ابن حجر: "فكلُّ ما نُهيَ المؤمنُ أنْ يضيفه إلى نفسه، نُهي أنْ يضيفه إلى أخيه المؤمن"(٦٥).

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا قال الرجلُ هَلَكَ الناسُ فهو أَهْلَكُهُمْ"(٦٦). وقد رُويَ "أَهْلَكهُم"برفع الكاف على أنه أفعل تفضيل، وبفتحها على أنه فعل ماض. والرَّفع أشهر كما يقول النووي. والمعنى: أشدُّهم هلاكاً. وذلك إذا كان قوله على سبيل الازدراء والاحتقار للناس، وتفضيل نفسه عليهم، لأنه لا يدري سرَّ الله تعالى في خلقه(٦٧).

وقال الخطابي: معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساوئهم، ويقول: فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكُهم؛ أي أسوأ حالاً فيما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أدَّاه ذلك إلى العُجب بنفسه ورؤيته أنَّ لـه فضلاً عليهم، وأنه خيرٌ منهم فيهلك(٦٨).

٦٣- متفق عليه. انظر: البخاري: **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب، باب رقم ١٠٠، حديث رقم ٥٨٢٦، ج ٥، ص ٢٢٨٦. مسلم: **الجامع الصحيح**، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب رقم ٤، حديث رقم ٢٢٥٠، ج ٤، ص ١٧٦٥.

٦٤- العظيم آبادي، أبو الطيب محمد شمس الحق: **عون المعبود**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤١٥هـ، ج ١٣، ص ٢٢١.

٦٥- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٣٧٩هـ، ج ٣، ص ٢٧.

٦٦- مسلم: **الجامع الصحيح**، كتاب البر والصلة والآداب، باب رقم ٤١، حديث رقم ٢٦٢٣، ج٤، ص ٢٠٢٤.

٦٧- انظر: النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف: **صحيح مسلم بشرح النووي**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ج ١٦، ص ١٧٥.

٦٨- انظر: المرجع السابق، ج ١٦، ص ١٧٥- ١٧٦.

ويدخل في هذا الباب اعتراض الرسول صلى الله عليه وسلم على رجلٍ قال له: ما شاء الله وشئت. فقال له: "أجعلتني والله عدلاً؟ بلْ ما شاءَ اللهُ وحدَهُ"(٦٩). وفي روايةٍ للنسائي، أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقولوا: ما شاء اللهُ وشاء فلان، ولكنْ قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان"(٧٠). فمع أنَّ الرجلَ لم يقصد الشرك بالله، إلا أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم يُوجِّه ويصحح المفاهيم، ويحاول الإبتعاد بالمؤمنين عن الظلال السيّئة للكلمة أو العبارة.

وكان من سُنَّتِهِ صلى الله عليه وسلم تبديل الاسم القبيح بالحسن، فقد غيَّر صلى الله عليه وسلم بعض الأسماء التي توحي معانيها بظلال قبيحة. ومن ذلك أنه غيَّر اسم عاصية إلى جميلة(٧١)، وحَزَن إلى سهل(٧٢)، وبَرَّة إلى زينب، وعلّل رسول الله صلى الله عليه وسلم تغييره لاسم بَرَّة بأن في ذلك تزكيةٌ للنفس(٧٣)، وتزكية النفس ومدحها أمرٌ يخدش نقاء الكلمة وصفائها.

ولعلَّ أصحاب السياسة والزعماء كانوا ممن أدركوا هذه الظلال التي تحيط بالكلام، فعندما تكون الحقيقة بغيضة، فإنهم يحاولون تهدئة الجمهور بتنقية الكلمات، فيجعلونها ذات تعبيرات لطيفة. ولنأخذ جانب الحرب على سبيل المثال، فلمَّا كان للحرب وجهٌ دميم؛ فقد عمد العسكريون إلى تزيين وجهها بالعبارات الملطِّفة. ففي الأربعينات غيَّرت أمريكا اسم وزارة الحربية إلى وزارة الدفاع، وفي عهد الرئيس ريجان تحوَّل اسم الصاروخ الحامل لرأسٍ نووي (MX) إلى اسم الصاروخ الحافظ للسلام، وفي وقت الحرب يُطلق اسم "الدمار الملازم" على الكوارث المدنية(٧٤).

٦٩- البيهقي: **السنن الكبرى**، كتاب الجمعة، باب رقم ٥١، حديث رقم ٥٦٠٣، ج ٣، ص ٢١٧.

٧٠- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: **السنن الكبرى**، تحقيق: عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، كتاب **عمل اليوم والليلة**، باب ٢٧٦، حديث رقم ١٠٨٢١، ج ٦، ص ٢٤٥.

٧١- مسلم: **الجامع الصحيح**، كتاب الآداب، باب رقم ٣، حديث رقم ٢١٣٩، ج ٣، ص ١٦٨٧.

٧٢- البخاري: **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب، باب ١٠٧، حديث رقم ٥٨٣٦، ج ٥، ص ٢٢٨٨.

٧٣- مسلم: **الجامع الصحيح**، كتاب الآداب، باب رقم ٣، حديث رقم ٢١٤١، ج ٣، ص ١٦٨٧.

٧٤- انظر: ميلز، هاري: **فنّ الإقناع**، ترجمة: مكتبة جرير، الرياض: مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠١م، ص ١١٧.

ويدخل في إطار هذا الموضوع ما يمكن أنْ نُطلق عليه جغرافية الكلمة، ونعني بذلك: "اختلاف المقصود من الكلمة أو تأثيرها، باختلاف موقعها الجغرافي من حيث المكان والزمان والفكر"(٧٥).

فهنالك كلمات ذات نطاق واحد، ولكن المقصود منها في مكان يناقض المقصود منها في مكان آخر، وهناك كلمات تحمل المقصود ذاته في مكانين مختلفين، ولكن لشيوعها في مكان أصبحت مبتذلةً عاديَّة التأثير، ولنُدرتها أو عدم استعمالها في مكان آخر أصبحت قوية التأثير البلاغي أو البياني أو غير ذلك من صور التأثير. فمثلاً هناك بعض الأسماء في المشرق العربي يحملها عدد من الأسر في مناطق مختلفة، دون أن يكون لها دلالات سوء أو تعيير، ولكنها تحمل عاراً وشناراً وتكون مثار تندٍّر وتعجب في بلاد المغرب العربي، برغم أن ماعون الكلمة الذي نغترف منه لغتنا هو ماعون واحد(٧٦).

وقد يصل تأثير جغرافية المكان في الكلمة حدّاً بعيداً، والدليل على ذلك ما أورده ابن أبي شيبة في **مصنفه**، من أنه جيء للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأسيرٍ يرتَعِدُ برْداً، فقال للقوم: اذهبوا فَأَدْفُوه. فذهبوا به فقتلوه، فَوَدَاهُ النبيّ صلى الله عليه وسلم(٧٧).

وأوضح صاحب" النهاية في غريب الحديث والأثر" مصدر اللبس، مُشيراً إلى أنَّ معنى فَأَدْفُوه في لغة قريش؛ أي أَدْفِئُوهُ من البَرْد، ولكنها في لغة أهل اليمن؛ أي اقتلوه. وهكذا فَهِم الصحابة الذين أُمِروا بإدفائه(٧٨).

يتبيّن لنا مما سبق أنَّ من دواعي الحرص على النقاء، ضرورة مراعاة جغرافية الكلمة، فنتجنّب قدر الإمكان الكلمات ذات الظلال السيّئة في منطقة معيّنة، حتى وإن كانت عادية بالنسبة لنا في منطقتنا، فإنَّ ذلك بابٌ من أبواب نقاء الكلمة الذي ينبغي التنبّه له والتحلّي به.

٧٥- مقال على الإنترنت غير مذكور اسم كاتبه، بعنوان: "**جغرافية الكلمة: جغرافية المكان والفكر**". انظر: http://www.Suhuf.net.sa/2001jaz/feb/18/ar8.htm

٧٦- انظر: المرجع السابق.

٧٧- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد: **مصنّف ابن أبي شيبة**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ، حديث رقم ٢٨٠٥٩، ج ٥، ص ٤٧٠.

٧٨- انظر: ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية، د.ط، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج ٢، ص١٢٣.

المبحث الثالث: جمال في العلاقة بين الصوت والمعنى:

مما يتعلق بالظلال العامة للكلام ويدخل في موضوع نقاء الكلمة، قضية الصوت وعلاقته بالمعنى، فإنَّ لصوت الكلام عند النطق به علاقة وطيدة بمعناه، وغالباً ما تكون نبرة الصوت عاملاً مساعداً على توضيح المعنى، كما أنها تُضفي على الكلام ظلالاً جديدة، ما كانت لتوجد لو بقيَ هذا الكلام مكتوباً غير منطوقٍ به.

وفي القرآن الكريم إشاراتٌ واضحة إلى العلاقة القائمة بين الصوت والمعنى. نرى ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا مَا لَكُمْ إِذَا قِيْلَ لَكُمُ انْفِرُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيْتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِيْ الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيْلٌ**﴾(٧٩).

فكلمة "اثاقلتم" جاءت متميّزة في بنائها الصوتي، مما أعطاها تميّزاً في الدلالة على المعنى. فنظام الحروف في هذه الكلمة، وما فيها من تشديدٍ ومدٍّ ووقف، يوحي بالتثاقل الشديد، وكأنما حركة الفعل تتجه إلى أسفل، حتى لكأن بين هؤلاء وبين الأرض خيطاً غليظاً يربطهم بها، فلا يستطيعون أنْ ينفكُّوا منه. وحينما تستمع الأذن إلى الصوت الصادر من هذه الكلمة "يتصور الخيال ذلك الجسم المثَّاقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل. إنَّ في هذه الكلمة طنّاً على الأقل من الأثقال! ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخفَّ الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقلَّ برسمها"(٨٠).

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ**﴾(٨١). ترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها، وفي جرس "ليبطئن" خاصة، وإنَّ اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبّط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها(٨٢).

وفي قصة هود، في قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّيْ وَآتَانِيْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُوْنَ**﴾(٨٣). تُصوِّر كلمة "أنلزمكموها" جوّ

٧٩- سورة التوبة: الآية ٣٨.

٨٠- انظر: سيد قطب، **التصوير الفنّي في القرآن**، مصر: دار المعارف، ص ٧٨.

٨١- سورة النساء، الآية: ٧٢.

٨٢- سيد قطب: **التصوير الفنّي في القرآن**، ص ٧٨.

٨٣- سورة هود، الآية: ٢٨.

الإكراه، بإدماج كلٍّ هذه الضمائر في النطق، وشدٍّ بعضها إلى بعض، كما يُدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويُشدُّون إليه وهم منه نافرون(٨٤).

وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوْتُوْا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِيْ كُلَّ كَفُوْرٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُوْنَ فِيْهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِيْ كُنَّا نَعْمَلُ**﴾(٨٥). يُظهر الصوت الحاصل من نطق كلمة "يصطرخون" غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما يُظهر الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يُلبّيه. ويبدو من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون(٨٦).

ومن دلالة الصوت على المعنى ما يظهر في سورة الناس. ﴿**قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِيْ يُوَسْوِسُ فِيْ صُدُوْرِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾(٨٧). فعند قراءتها بشكل متوالٍ، يُحدث الصوت الخارج من كلماتها وحروفها وسوسةً كاملةً تناسب جوَّ السورة(٨٨).

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن القيامة يستخدم من الألفاظ ما يوحي صوتُه بالدلالة الواضحة على ما فيه من معنى، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى**﴾(٨٩). وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ**﴾(٩٠). ونحو ذلك من الألفاظ ذات الجرس العنيف، الذي من شدّته يكاد يخرق الآذان، وتنخلع من هوله القلوب(٩١).

٨٤- انظر: سيد قطب: **التصوير الفنّي في القرآن**، ص ٧٨.

٨٥- سورة فاطر، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

٨٦- انظر: سيد قطب: **التصوير الفنّي في القرآن**، ص ٧٩.

٨٧- سورة الناس.

٨٨- انظر: سيد قطب: **التصوير الفنّي في القرآن**، ص ٨٠.

٨٩- سورة النازعات، الآية: ٣٤.

٩٠- سورة عبس، الآية: ٣٣.

٩١- انظر: عبد العال، محمد قطب: **من جماليات التصوير في القرآن الكريم**، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ص ١٣٩.

نخلُص مما سبق أنه لا يمكن الفصل بين الصوت والمعنى، لأن صوت الكلمة أو العبارة يدل على معناها. وأنَّ القرآن الكريم اختار لكل معنى من الكلمات ما يكون الصوت الصادر عنها مناسباً لهذا المعنى.

وفي الوقت نفسه؛ فقد نبَّه القرآن الكريم على قضية اختلاف المعنى في الكلمة أو العبارة الواحدة، بسبب اختلاف طريقة نطقها، والصوت المصاحب لها، بين مرَّة وأخرى. فربما يدل الصوت المرافق للنطق بالكلام على معنى آخر غير المعنى الذي كان يمكن أن يدل عليه الكلام لو لم يكن منطوقاً به. فرُبَّما يدلُّ الصوت الذي تُنطَقُ به كلمة "نعم"، على معنى "لا". وقد يقول شخص لآخر: تفضَّل، بصوتٍ يُفهم منه عكس ذلك تماماً.

فليست الكلمات وحدها هي التي تملك المعاني، فالأصوات أيضاً تملك التعبير الخفي عن المعاني، فتعمل على تأكيدها أو نفيها. فحين لا يكون إنسانٌ راضياً عن موقف معين، ولا يستطيع أن يُصرِّح بالرفض لسبب أو لآخر، ويقول كلمة " موافق" بصوت ضعيف مهزوز؛ فإن هذا الصوت يؤكد عدم الموافقة، على الرغم من النطق بها. وهو ما يؤكد على أنَّ ثمَّة أصواتاً يُمكنها إضفاء معاني أخرى على الكلمات، وأن الكلمات نفسها تأخذ معاني مختلفة في أوقات مختلفة، وفي مواقف مختلفة(٩٢).

يقول الدكتور كيرك دنمارك Kirk Denmark أستاذ علم الكلام في جامعة بلويت ـ وِسكُونسِنْ Beloit Wisconsin: "يمكنك أنْ تنطق بالكلمة مرَّات عديدة، وتعطيها كلّ مرة معنى مغايراً لسابقه.. فقد تصكّ أسنانك وتقطّب جبينك وأنت تقول مثلاً: إني أحبُّك، فيسمعها السامع تهديداً بالقتل"(٩٣). فقد نبَّه القرآن الكريم إلى هذا المعنى الموجود وراء الكلمات. فرَبُّ العزَّة يُوَجِّه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى معرفة المنافقين من خلال نبرات أصواتهم وهفوات ألسنتهم. قال تعالى: ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيْمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِيْ لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ**﴾(٩٤).

فالله يبيّن لنبيّه صلى الله عليه وسلم أنه إنْ خَفِيَ عليك أيها النبيّ أمْرَ هؤلاء المنافقين "فإنَّ لهجتهم ونبرات صوتهم، وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم في خطابك، سيدلّك على نفاقهم"(٩٥).

٩٢- انظر: الأقصري، يوسف: **كيف تتكلم وتتحاور بطريقة أفضل**، القاهرة: دار اللطائف، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٧.

٩٣- مهدي، عباس: **الشخصية بين النجاح والفشل**، بيروت: دار المناهل ودار الحروف، ص ١٢٩.

٩٤- سورة محمد، الآية: ٣٠.

٩٥- سيد قطب: **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٢٩٨.

فَلَحْنُ القول: "هو ما يندسُّ في الكلام من معانٍ خفيَّة، ذات دلالاتٍ وإشاراتٍ، يعرفها المنافقون فيما بينهم، ويتعاملون بها"(٩٦).

غير أنَّ هذه المعاني الخفية لا تخفى على كلِّ ذي لُبٍّ، بل يمكن تمييزها في نبرات الصوت وهفوات اللسان. وإنما سُميَ الكلام الذي ينطق به المنافقون لحناً "لأنه يخرج في صورة خادعة من النظم، تتماوج فيها المعاني، وتتراقص الكلمات، فتتناغم العبارات، فتخرج أشبه باللحن الموسيقي الذي يُسمَع منطوقُه، ولا يكاد يُعرف مفهومُه إلا لأهل العلم في هذا الباب"(٩٧).

كما أن حديث الكاذب يتسم بارتفاع نبرات صوته في نهاية عباراته، بالإضافة إلى توقفه قليلاً أثناء حديثه وتلعثمه، والنطق بعبارات غير مفهومة؛ نظراً لاضطرابه وقلقه(٩٨).

نستنتج من ذلك أن الكلمة المنطوقة ليست كلمة محايدة، بل إنها تتأثر بنبرة الصوت أو النغمة، وبالتغيير في مقامات الأصوات، وبالوقفات التي تتخلل إلقاء عبارة معيّنة، ودرجة الخشونة أو الليونة. فكلمة "نعم" وهي كلمة بسيطة، يمكن أنْ تُعبِّر ـ في صورتها المنطوق بها ـ عن العديد من المعاني أو المشاعر: كالغضب، أو الخوف، أو الإحباط، أو التمنّي، أو الموافقة، أو اللامبالاة، أو التحدّي. وذلك حسب الطريقة التي تُنطق بها، أو أسلوب التعبير الصوتي المرافق للنطق بها(٩٩).

وبناء على ذلك، فإنَّ المطلوب منا حتى نستطيع إدراك معاني ما يقوله الآخرون لنا، أنْ لا نُرَكِّز على ما يقوله الآخرون من الألفاظ والعبارات المجرَّدة فقط، بل وعلى كيفية نُطقهم وأدائهم لهذه الألفاظ أيضاً، لذلك يُنبِّه القرآن الكريم إلى ضرورة عدم الوقوف عند ظاهر كلام المنافقين، ويدعو إلى النظر فيما وراء الكلمات، لأنهم ليسوا صادقين في أقوالهم. قال تعالى: ﴿**إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُوْنَ قَالُوْا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُوْلُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُوْلُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ لَكَاذِبُوْنَ**﴾(١٠٠). وقال تعالى: ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ**﴾(١٠١). وقال تعالى:

٩٦- الخطيب، عبد الكريم: **التفسير القرآني للقرآن**، ج ٧، ص ٣٦٧.

٩٧- المرجع السابق، ج ٧، ص ٣٦٧- ٣٦٨.

٩٨- انظر: ميلز، هاري: **فنّ الإقناع**، ص ٧٩.

٩٩- انظر: سامية محمد جابر: **الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د.ط، د.ت، ص ٦٣.

١٠٠- سورة المنافقون، الآية: ١.

١٠١- سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ نَافَقُوْا يَقُوْلُوْنَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيْعُ فِيْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوْتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ * لَئِنْ أُخْرِجُوْا لاَ يَخْرُجُوْنَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوْتِلُوْا لاَ يَنْصُرُوْنَهُمْ وَلَئِنْ نَّصَرُوْهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُوْنَ﴾(١٠٢).

إذاً خطابُنا مع الآخرين، لا ينبغي أنْ يكون مجرد كلمات جافة لا حياة فيها، حتى وإنْ كانت الكلمات التي نقولها للآخرين عظيمة في معناها إلا أنه علينا أنْ نوصلها إليهم بصوتٍ يدلُّ على حقيقة هذا المعنى، لما أشرنا إليه من الارتباط الوثيق بين الصوت والمعنى.

فإنَّ نبرة الصوت تُعبِّر عما يجيش في صدر الإنسان، فهي توصل للناس أكثر من مجرد الأفكار. لأنها تقوم بتوصيل المشاعر التي نحسُّ بها. فيمكن بالصوت أنْ نُعبِّر عن اليأس، أو الشجاعة والإقدام، أو الشجن والحزن. وأشار علماء النفس والاجتماع إلى أنَّ الصوت يدل على النفسية الإنسانية، فهو مرآة لخفايا الإنسان. فالصوت يمكن أنْ يخلق انطباعاً مباشراً إمَّا لصالح المتكلّم أو ضدّه، فالصوت ونبرته وطريقة الإلقاء تدلّ على بعض جوانب شخصيته، فنبرة الصوت العالية تكشف أبعاد وجود نقصٍ في الشخصية، بينما نغمة الصوت الهادئة تكشف عن شخصية ودودة هادئة متزنة(١٠٣).

وبشكل عام فقد صنَّف علماء النفس والاجتماع الشخصيات، بناءً على نبرة الصوت وطريقة الكلام، إلى خمس شخصيات أساسية، هي(١٠٤):

١- الشخصية العدوانية: وهي التي تتكلم وكأنها تعطي الأوامر في معسكر حربي، وكلماتها دائماً جافة وحازمة، ونبرة صوتها حادّة ومميّزة.

٢- الشخصية المخادعة: والتي تتكلم عادة بكلام مُنمَّق معسول، ولكنَّ معانيه مُبطَّنة. وينطبق عليها قول الشاعر:

يُعطيك مِنْ طَرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ(١٠٥)

١٠٢- سورة الحشر، الآيتان: ١١، ١٢.

١٠٣- انظر: الأقصري، يوسف: **فن التعامل مع الناس**، القاهرة: دار اللطائف، ٢٠٠١م، ص ٦١- ٦٥.

١٠٤- المرجع السابق، ص ٦٥- ٦٦.

١٠٥- البيت لعلي بن أبي طالب. انظر: علي بن أبي طالب: **ديوان الإمام علي**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت: دار ابن زيدون، ص ٥١.

٣- الشخصية المتسامحة: والتي يكون صاحبها رقيق النبرة، هادئ الأسلوب، يُجاري في الكلام أياً كان نوعه واتجاهه، ولا يعلو صوته على صوت الآخرين، بل يحاول أن يوازن بين النغمتين ليصل إلى مستوى نغمة الآخر تماماً.

٤- الشخصية الصامتة: وهي التي يفتح صاحبها الحوار مع الآخرين بهدوء ونبرة منخفضة، وسرعان ما يترك غيره يتحدث بينما يأخذ هو دور المستمع الجيِّد.

٥- الشخصية الغامضة: وهي التي تتغير نبرة صوتها عدة مرات، بحيث لا تستطيع أنْ تعرف المقصود من حديثها، وتجعل المستمع في حيرة يعجز فيها عن الإجابة على أسئلتها. ويوصَف صاحب هذه الشخصية بأنه منتبه جيّد، ومستمع جيّد، ولكنه متحدث غامض.

فلا بدَّ أنْ يكون فهم الآخرين، وفهم مدلول كلامهم، وطبيعة شخصيتهم، عناوين بارزة في التعامل معهم، حتى نحقق النجاح في بناء العلاقات الإنسانية، ونزيل الحواجز والعقبات الناجمة عن الجهل بالطبيعة النفسية للكائن الإنساني.

خاتمـة:

توصَّل البحث لمجموعة من النتائج، من أهمها:

١- برزت بشكلٍ واضح نقاء الكلمة في الخطاب القرآني، أثناء الحديث عن بعض الخصوصيات كالعلاقة بين الرجل والمرأة، حيث لجأ القرآن إلى الكناية والمجاز، وتجنّب التصريح بالألفاظ التي تجرح الحس والشعور، مما كان له أثرٌ واضحٌ في إشاعة الحياء والأدب والنقاء والعفة بين الناس.

٢- ليست الألفاظ على درجة واحدة من حيث النقاء والإيحاء بالمشاعر والأحاسيس. فإنَّ بعض الألفاظ يوحي بمشاعر يحسُّها السامع، لا توحي بها ألفاظٌ مرادفةٌ لها. ومن هنا فقد دعا القرآن الكريم إلى اجتناب بعض الكلمات لما يحيط بها من ظلال تتنافى مع نقاء الكلام ونظافته.

٣- غالباً ما تكون نبرة الصوت عاملاً مساعداً في توضيح المعنى، كما أنها تُضفي على الكلام ظلالاً جديدة، لذا فإنَّ الخطاب مع الآخرين لا ينبغي أنْ يكون مجرد كلمات جافة لا حياة فيها، حتى وإنْ كانت الكلمات التي تُقال للآخرين عظيمة في معناها، إلا أنه ينبغي أنْ تُوصَل إليهم بصوتٍ يدلُّ على حقيقة هذا المعنى، فإنَّ نبرة الصوت تقوم بتوصيل المشاعر والأحاسيس.

* * * *